الفصل السابع

الفردية

إذا كانت هناك صفة واحدة محدِّدة تعرِّف الغرب، ويتفق مساندو الغرب ومناوئوه على أنها صفة مركزية لشخصيته، فهي الفردية، فالصعود ثم الصعود الذي كان للفردية هو الموضوع المهيمن الذي يسري عبر التاريخ الغربي، من المسيحية، إلى عصر النهضة، وإلى الإصلاح، وإلى نمو الاقتصاد الحديث، والمجتمع الحديث، وليس للفردية الغربية أي جذور مثيلة في أي حضارة أخرى، فجميع الثقافات حتى المشبعة منها بالأفكار الغربية والممارسة الغربية في أعمال التجارة والصناعة، من أمثال ثقافات اليابان، وكوريا، وسنغافورة، وهونغ كونغ لم تصبح فردية وفق الطريقة الغربية، وجميع أعداء الحضارة الأمريكية الأوروبية في القرن العشرين ـ الشيوعيون، والنازيون، واليابان الإمبراطورية، والجماعات الإسلامية المتطرفة ـ كانوا قد كرهوا الفردية الغربية بعاطفة وقناعة مطلقتين، وسعوا إلى توفير قواعد بديلة للهوية والالتزام، وأولئك الذين لديهم شكوك حول ثقافتهم الخاصة، وهم من داخل الغرب يفردون الفردية عادة ـ مع مرافقيها من الأنانية، والاغتراب، والتفريق ـ بوصفها السبب الجذري للمشكلة.

لا أحد يعتقد أن الفردية الغربية ضعيفة أو في خطر، وهناك بالأحرى مسألتان: نوع الفردية التي تهيمن، والطبيعة الأخلاقية لها، وهل هي مؤذية أم مفيدة؟

أصول الفردية

يحتمل أن يكون الإغريق القدماء قد اخترعوا الفردية، فقبل المسيح بتسعة قرون أو بثمانية قرون، تصف الأوديسا والإلياذه آلهة وبشراً امتلكوا بوضوح خصائص فردية، ولكن العبرانيين كانوا هم الذين جعلوا الفردية هي الحق والمسؤولية، لا للأبطال فقط وللآلهة، بل للناس العاديين أيضاً.

فأنبياء اليهود، في مدة 500 سنة قبل المسيح، فرّدوا الأخلاق، ولم يقدموا المواعظ للقادة العبرانيين فقط، بل للناس العاديين كذلك، وناشدوا الإحساس بالضمير وبالرحمة، الإحساس الذي كان يستطيع أن يعيش في داخل كل إنسان، كما شعروا.

والكلمات المنسوبة إلى المسيح من كتّاب الإنجيل، والرسالة التي طبعها القديس بطرس على المسيحية بشكل لا يمحى، لم تترك أي شك حول قيمة كل إنسان في نظر الله، وحول مسؤولية كل إنسان عن تحسين نفسه ذكراً كان، أو أنثى.

في المسيح، كما زعم بطرس، كان «آدم الجديد»، وهو نموذج إنساني جديد محسَّن، يستطيع أن يزدهر ـ أن يزكي نَفْساً أعلى، لم أبق أنا الآن، ولكن المسيح فِيَّ ـ، وقد وصف بطرس عذابه العقلي الخاص، وصف القتال بين المسيح وبين الشيطان، داخل أعماقه الخاصة، وعلى مر القرون القليلة الآتية، وافق اللاهوتيون المسيحيون على أن كل إنسان امتلك روحاً خالدة وقيِّمة قيمة لا نهاية لها

وفكرة أن كل فرد يمتلك شخصية، وأعماقاً داخلية، و«نفساً» مغروزة بشكل مأمون في داخل العالم هي فكرة أساسية للغاية بالنسبة إلى الهوية الغربية إلى درجة أنها تبدو واضحة، ومع ذلك، فإن وعي النفس هذا لم يوجد قبل المسيحية، وصار متطوراً تطوراً كاملاً في السنوات الألف الأخيرة فقط، وكما يقول الفيلسوف الكندي تشارلز تايلور: نحن توصلنا بشكل طبعيّ إلى التفكير في أننا نمتلك أنفساً بالطريقة التي نمتلك فيها رؤوساً أو أذرعة، وأننا نمتلك الأعماق الداخلية بالطريقة التي نمتلك فيها القلوب والأكباد، ولكن الإنسانية السابقة للمسيح لم تمتلك هذا الحس أبداً[1].

لقد كان أصل الفردية دينياً، وكان مسيحياً بشكل محدد يستند إلى فكرة أن الله يستطيع أن يعيش داخل الأفراد، وأن يهب أفعالهم مغزى مقدساً، وقد قال القديس أوغسطين: الله نور قلبي، والخبز الذي يغذي روحي، والقوة التي تقرن عقلي إلى أعمق أفكاري الجوَّانية.

يضع المؤرخون عموماً النمو الكامل لفكرة الشخصية في المدة التي تقع بين العام 1000 والعام 1500، وفي العام 1918، لفت أوزولد إشبنغلر الانتباه إلى العبادة الأوروبية الفريدة للشخصية ولجذورها الدينية القروسطية: إن مجيء هذه «الأنا» المحددة هو أول بزوغٍ لفجر فكرة الشخصية، تلك التي كانت بعد مدة لاحقة كثيرة جداً ستخلق

(1) تشارلز تايلور (1989) مصادر النفس: صنع الهوية الحديثة. مطبعة جامعة كمبردج، كمبردج.

منسك التوبة المقدس والغفران الشخصي... الإنسان الغربي يعيش في وعي صيرورته، وعيناه باستمرار على الماضي والمستقبل ... ما من إغريقي [قديم] كان يمكن أن يكون قادراً على النقد الذاتي الأصيل ... ليس هناك أي شيء غير شخصي جداً، مثل الفن الإغريقي...

إن الفرضية الأساسية في أنظمتنا الأخلاقية... هي أن الإنسان يمتلك طبعاً، يملك الشخصية، وعلاقة العيش مع الفعل ... إن مفهوم الإنسانية، بوصفها كلاً نشيطاً، ومقاتلاً، ومتقدماً هو فكرة ... ضرورية جداً لنا إلى درجة أننا نجد معها من الصعب في الحقيقة أن ندرك أنها فرضية غريبة على وجه الحصر، وهي حية وصحيحة لموسم فقط...[1]

كانت الشخصية ضمنية في التعاليم المسيحية الأولى، ولكنها أُحضِرت إلى البروز الأشد حدة بين العام 1050 والعام 1200، ويعطي بيتر واطسون ثلاثة أسباب محتملة للنمو في الفردية.

1- نمو المدن والمهن العلمانية من أمثال القانون، والأعمال، والتعليم.

2- نمو حق الولد البكر في الإرث، وهو ما أعطى الأرض إلى المولود الأول، وطالب الأولاد الأصغرين أن يسعوا إلى ثروتهم في أشغال مفردة.

(1) إشبنغلر (1991): ما حدث لأوديب ـ على خلاف مصير لير ـ يكون قد حدث كذلك لأي شخص آخر. هذا هو «المصير» الكلاسيكي [الإغريقي القديم] هو القَدَر المشترك لجميع بني البشر، والذي ...لا يعتمد بوجه من الوجوه على حوادث الشخصية.

3- إعادة اكتشاف أهل الأزمنة القديمة الكلاسيكية، التي أظهرت السلطات القديمة، وهي تختلف فيما بينها، وتتخذ خطاً مختلفاً عن خط الكنيسة[1].

وعلى الأرجح، فإن أهم فكرة كانت هي فكرة الإيمان الفردي: اعرف نفسك طريقا إلى الله[2] ومن القرن الثاني عشر والثالث عشر، أخذت المعركة بين الله والشيطان بروزاً جديداً، وأدت إلى «حرب ألغام لا تتوقف داخل النفس»[3]، وقبل العام 1200، كانت ممارسة الاعتراف نادرة، ولكن في العام 1215 طلب مجلس لاتران الرابع من كل شخص أن يعترف مرة في السنة على الأقل، ويفضل بعدد من المرات أكثر بكثير، وإن التوبة والندم شيء ينجزه الفرد وحده، وجاء اختراع الطباعة التجارية في العام 1457، وما تبعه من انتشار القراءة الصامتة، فعزز عملية الاستبطان، والإحساس بالفردية الداخلية[4].

وهكذا، فعصر النهضة لم يكتشف الشخصية، ولكنه عرضها إلى سطح المجتمع، وهناك صارت مرئية لكل شخص، وفي الفن على وجه الخصوص، كان هناك اعتراف صريح بالمخلوقات البشرية، بوصفها

(1) واطسون (2005).

(2) روبرت بنسون وغايلز كونستابل (محرران) النهضة والإحياء في القرن الثاني عشر (1991) مطبعة جامعة أوكسفورد، أوكسفورد.

(3) إشبنغلر (1991).

(4) إن أول كتاب مطبوع باستخدام حرف متحرك يمكن تأريخه كان هو كتاب مينز بسولتر بتاريخ 14 تشرين أول/أكتوبر 1457، والناشرون (الطابعون) كانوا منحازين بشكل خاص إلى نشر الهرطقة، وذلك، آنئذ والآن؛ لأن الفضيحة خلقت الشيوع وأفضل المبيعات.

أناساً وأفراداً لا مجرد أرقام أو رموز، ولقد كانت هي اللحظة في التاريخ الثقافي والعقلي التي تم فيها احتضان «إنسانية» الإنسان لأول مرة احتضاناً كاملاً.

والشخصيات الثلاث العظيمة من عصر النهضة، وهم ليوناردو، ورافائيل، ومايكل أنجلو، لم يكونوا فنانين وحسب، بل كانوا مفكرين وعلماء، وقلقين متعددي جوانب الثقافة، يجربون كل وسيلة متوافرة للتعبير عن الذات ولاكتشاف الذات، كانوا رجالاً بطموحات عالية علواً مستحيلاً، ويحاولون إلى الأبد أن يحرروا الإنسانية من قيودها الأرضية، ولم تكن مصادفة أن ليوناردو حاول أن يخترع آلات طائرة وصوراً كذلك للملائكة والقديسين يحلّقون بشكل مترف الزخرفة في الفضاء، متحررين من العنايات الأرضية[1]، لقد حل الخيال، والطموح، والإنجاز محل الدم النبيل، بوصفه مركز الإعجاب الاجتماعي، وفي الأغلب جداً، الطريق نحو الثروة الطائلة، والعملية الطويلة التي وصلت بها الفردية إلى التفوق على الإرستقراطية بدأت تكتسب زخماً.

الإصلاح عزز الفردية بطرق عديدة عميقة وغير مقصودة: عززها في الجسارة المحضة لشخص واحد تحدى مؤسسة المسيحية صاحبة

(1) هذه النقطة طرحها إشبنغلر طرحاً جيداً (1991): «أن يطير المرء، وأن يحرر نفسه من الأرض، وأن يفقد المرء نفسه في اتساع الكون»، أليس هذا فاوستياً إلى أعلى درجة؟ أليس هو في الحقيقة تحقيقاً لأحلامنا؟.. التشديد المصر على الانعتاق من ثقل الأرض، هو رموز لطيران الروح، وهو خاصة مميزة للفن الفاوستي، البعيد للغاية عن فن بيزنطة.

أعلى مكانة وقداسة، وعززها في توكيد مطالب الضمير الفردي ضد السلطة، وفي ادعاء الكهانة لكل المؤمنين، وفي إمكانية كل فرد أن يؤسس علاقة حميمة مع الله، مخرجاً بذلك الكنيسة، وكاسراً احتكارها لله وللاهوت، ومستأصلاً التمييز الترابي الهرمي بين رجال الدين والناس العاديين، وعززها في إقامة كنائس منافسة والسماح للحكام وللمحكومين أن يختاروا بينها، وبهذا التعزيز للفردية مهد الإصلاح الطريق نحو التعددية الدينية، ومهدها في نهاية المطاف للتشكيك بالدين وللإلحاد، ومن المؤكد، أن اللوثرية والكالفينية، وهما في عنفوان شدتهما كانتا عقيدتين غير متسامحتين، وارتدتا إلى المسيحية اليهودية، البدائية، المستندة إلى الخوف أكثر من استنادها إلى الحب، ولكنهما مثلهما مثل الأصوليين المسيحيين في وقتنا الحاضر،لم تكن محاولتهما لضبط الأفراد، وتقييدهم ممكنة التصور من دون التقدم السابق للفردية، وهو التقدم الذي أقدر لوثر، وكالفن، وجون كنوكس والإنجيليين الآخرين على الثورة ضد السلطة الراسخة، وعلى توكيد رؤاهم الفردية.

وكما كتب ماكس ويبر منذ 100 عام، فإن لوثر اخترع فكرة «دعوة»، «تقييم إنجاز الواجب في شؤون العالم، بوصفه أعلى شكل يستطيع النشاط الأخلاقي للفرد أن يتولاه»[1]، وأضاف كالفن إلى هذا «فكرة ضرورة أن يقوم المرء بالبرهان على قيمته في النشاط الدنيوي»، وذلك إشارة إلى أن المرء ينتمي إلى المختارين، لا إلى الملعونين.

(1) ويبر (1985).

ولذلك، فمع الدين البروتستانتي، لم يكن الفرد قد أمسك فقط بالاستقلال الذاتي، وبمعنى متناقض ظاهرياً، ولكنه مهم جداً، إن الاستقلال الذاتي مفروض على الفرد، وزعم ويبر أن مماهاة المسؤولية الشخصية بكسب المال بشكل دؤوب تركت علامة لا تمحى على الحضارة الغربية، وعجلت بانتشار الرأسمالية، عن طريق تشجيع الاقتصاد في النفقة، والتوفير والكفاح الشخصي في الأعمال التجارية والصناعية، وأطروحة ويبر مازالت موضع الجدل، ولكن ما هو الواضح وضوحاً مطلقاً هو أن لوثر وكالفن بشّرا بمعنى جديد من المسؤولية الشخصية في القضايا اليومية للأعمال التجارية والصناعية، وأن هذا المعنى الجديد أثر في ملايين الأفراد، وانتقل في نهاية المطاف إلى أخلاق الأعمال المسيطرة الخاصة بأمريكا، وبكثير من أوروبة، وهي أخلاق اشتقت بوضوح من الدوافع الدينية، ولكن الأخلاق كانت مع حلول وقت الثورة الأمريكية، قد صارت مستقلة عن تلك الدوافع[1].

(1) يجد ويبر متعة عظيمة في الاقتباس من كتاب فرانكلين: نصيحة إلى تاجر شاب (1784)، وهو الكتاب الذي ربما كان أول كتاب حديث من نوع ساعد نفسك، ويحتوي على درر من الأقوال من أمثال: تذكر أن الوقت مال... تذكر أن الثقة مال.. المال يستطيع أن يلد المال، وتستطيع ذريته أن تلد المزيد، وهكذا... وإن الذي يقتل قطعة نقد تساوي الكراون [خمسة شلنات، ربع جنيه إسترليني]، يدمر كل ما ينتجه هذا الكراون، بل يدمر أعداداً كبيرة من الجنيهات... صوت مطرقتك في الساعة الخامسة في الصباح، أو في الثامنة في الليل، وقد سمعه دائن، يجعله مرتاحاً لمدة ستة أشهر أخرى، ولكنه إذا رآك عند طاولة بليـاردو، أو سمع صوتك في حانة، حين يجب أن تكون في العمل، فإنه يرسل بطلب نقوده في اليوم الآتي... ـ، وكما يلاحظ ويبر، فإن=

ما لم يلاحظه ويبر هو أن ـ روح الرأسمالية ـ التي رآها كانت قد ظهرت بالفعل لا قبل تاريخ ظهور الرأسمالية الصناعية فقط، بل قبل تاريخ الإصلاح أيضاً، بعدة قرون، وكما ظهر سابقاً، فإن أوروبا القروسطية، من مطالع القرن الحادي عشر، كانت فريدة في تطوير الدول المدن المستقلة التي رعت طبقة جديدة من الناس الأحرار المستقلين من الوكلاء التجاريين، والتجار، والحرفيين، والعمال المهرة، وهم في الغالب يكتسبون قوة من التنظيم في طوائف مهنية، وهيئات جماعية من الأفراد، وكانت أوروبة كذلك أول منطقة من العالم ترخي القيود التي كانت تربط الفلاحين بالأرض، وفي بعض البلدان ـ وخصوصاً في هولندا وإنجلترا كان الكثيرون من الفلاحين قادرين على أن يصيروا ملاكاً صغاراً للأرض، مسؤولين عن معيشتهم الخاصة بدل أن يكونوا عبيداً في أملاك سيدهم اللورد.

البديل الأكثر قبولاً لأطروحة ويبر القائلة: إن البروتستانتية أدت إلى الرأسمالية، هو أن الرأسمالية «إذا كنا نعني بها نشاط السوق الحر» هي التي أدت إلى البروتستانتية، ومحاريب السوق الحرة في أوروبة، التي سكنها أفراد جادون، ومستقلون، وموظفون لأنفسهم، قدمت جمهوراً مستقبلاً لرسالة لوثر، وكالفن.

= هذه إيديولوجية دينية تجردت الآن من الدافع الديني، وانغرست في الذهن من أجل قيمتها الخاصة: كل مواقف فرانكلين الأخلاقية ملونة بمذهب المنفعة، فالأمانة مفيدة؛ لأنها تضمن الثقة، ومثلها دقة التقيد بالمواعيد، والاجتهاد، والاقتصاد في النفقة...

ومهما قد يكون هذا، فإن أوروبة، وأمريكا بعد ذلك، كانتا بلا أدنى شك هما أول مكانين على الأرض يصيران وطناً لمئات الآلاف، وبعدئذ للملايين من الناس، ولنسبة مهمة من السكان، الذين كانوا، عن وعي كامل، مستقلين اقتصادياً، ومهتمين في التقدم بحريتهم السياسية، وموهوبين بإحساس قوي من المسؤولية الشخصية والكفاح الشخصي، والكثيرون منهم جعلوا الاختيار الواعي لدينهم الخاص مسألة جوهرية، وكان الاستقلال الذاتي الاقتصادي، والسياسي، والديني، والفكري قد تم اكتسابه بشكل مؤلم، وكانت أجيال من هؤلاء الناس تقدره تقديراً عظيماً.

وروح الفردية التي جاءت إلى الوجود من البيئة الاقتصادية، والدينية، والسياسية، لأوروبا وأمريكا، ومن تاريخ أوروبة وأمريكا، هي بشكل طبعيّ ومحتوم تماماً، روح أعمق، وأكثر رسوخاً، وأكثر تغلغلاً، من تلك الروح الفردية التي شعرت بها أو خَبِرتها أي حضارة أخرى.

وإذا كنا قد فقدنا الإبصار بهذه الحقيقة الواضحة إلى حد كبير، فذلك لأن هناك ميلاً إلى الاعتقاد بأن الفردية منتج من القرن الماضي، أو من الإيديولوجية المحافظة الجديدة، أو من المجتمع المستهلك، ولقد تطورت الفردية فعلاً تطوراً بطيئاً طوال أكثر من 2000 عام، وهي المنتج المعقد لتطورات فريدة في الفكر، وفي التاريخ الأوروبيين والأمريكيين.

ونستطيع أن نتعقب إحساس الكشف عن الإمكان الداخلي في أفكار طورها مايكل دو مونتين (1533 - 92) ورينيه ديكارت(1596 - 1650)، ففي

مقالة نشرت في العام 1580، قدم مونتين تبريراً حديثاً مدهشاً للفردية: أعظم شيء على الأرض هو أن تعرف كيف تنتمي إلى نفسك، فكل إنسان ينظر أمامه، ولكنني أنظر في داخل نفسي، إذ ليس لدي اهتمام بغير اهتمامات نفسي، وأنا أتأمل نفسي باستمرار، وأنا أضبط نفسي، وأنا أتذوق نفسي... نحن مدينون ببعض الأشياء للمجتمع، ولكن القسم الأكبر لأنفسنا، ومن الضروري أن يعير المرء نفسه لآخرين، ولكن من الضروري ألا يهب المرء نفسه إلا لنفسه[1].

وأما ديكارت فقد وضع السلطة الأخلاقية والاكتفاء الذاتي وضعاً حازماً داخل الفرد. وقد قال للملكة كريستينا ملكة السويد: «إن الإرادة الحرة هي أنبل شيء نستطيع أن نملكه، وذلك لأنها تجعلنا في أسلوب معين مساوين لله وتستثنينا من كوننا رعاياه». ولأول مرة يُطلب من الفرد أن يخلق فلسفته الخاصة في الحياة ويؤصل هذه الفلسفة ذكراً كان أو أنثى. وملاحظة ديكارت المشهورة ـ أنا أفكر، ولذلك فأنا موجود ـ تتضمن «النفس المفكرة»، والفرد العقلاني.

إن التطور الفكري الأخير للفردية معروف معرفة جيدة، وقد قال جون لوك في القرن السابع عشر: إن العقل الإنساني كان هو الطريق الوحيد لمعرفة الواقع الحقيقي وتقديره، فكلتا الثورتين الإنجليزيتين في العام 1640، والعام 1688 كانت النتيجة، والسبب لموجة من التنظير السياسي الجذري (الراديكالي)، وإلى درجة عالية لرفض السلطة

(1) مايكل دو مونتين (1580) مقالة، اقتبسها نورمان ديفيز (1996) أوروبة: تاريخ، مطبعة جامعة أكسفورد، أوكسفورد،ص 483.

الملكية المستبدة وحقوق المواطنين، والثناء على «الاستقلال الصلب» وتعزيزه وكرامة الناس العاديين (صغار الفلاحين). وتابع ذلك فلاسفة التنوير، بنظريات عن «العقد الاجتماعي»، و«حرية الفرد»، و«حقوق الإنسان»، جاعلين الفرد مصدر كل السلطة الشرعية، والسعادة الإنسانية مقياس السياسة العامة، وطور عمانويل كانط (1724 - 1804) نظرية الأخلاق العلمانية، التي يمتلك فيها المواطنون حقوقاً والتزامات متبادلة، وتجد فيها الروح الداخلية للفرد، مع هويتها الخاصة المميزة، التعبير الكامل عنها في علاقاتها مع الأفراد الآخرين.

ويصف تشارلز تايلور من هذا الوقت كيف «أن ثقافة أخلاقية جديدة تشع باتجاه الخارج، وإلى الأسفل من الطبقات الوسطى العليا من إنجلترا، وأمريكا، و(لبعض النواحي) فرنسا... وهي ثقافة فردية في ثلاثة معان: فهي تعطي قيمة عالية للاستقلال الذاتي، وهي تعطي مكاناً مهماً لاستكشاف الذات، وعلى وجه الخصوص استكشاف الشعور، ورؤيتها للحياة الخيرة عموماً تشتمل على الالتزام الشخصي» بالأسباب، وبالناس الآخرين.

وأعطى الكتاب الرومانسيون انعطافة مميزة ـ وبشكل بارز جان جاك روسو (78–1712)، وجوهان غوتفريد فون هيردر (1744 - 1803) وجوهان وولفغانغ فون غوته (1749 - 1832)، في مطلع مسيرة حياته، فقد صور الرومانسيون الطبيعة بوصفها لطيفة، تغذي علاقة مع الإنسانية، ويستطيع الأفراد أن يغمروا أنفسهم في الطبيعة؛ ليصلوا إلى أعماق جديدة من الشعور، ومن التعبير عن الذات، وأضافت

الرومانسية إلى الفردية فكرة الأصالة ـ فكل شخص فرد حي يمتلك تعبيراً عن الحياة غير قابل للمقارنة، وغير قابل للتقليد، وغير قابل للتكرار، ويكمن القدر الإنساني في تحقيق أصالتنا، وكان الرومانسيون مسؤولين عن الرأي الفريد المتعالي الذي تعطيه الحضارة الغربية للفنانين، وللخيال الخلاق.

وإلى جانب الليبرالية والقومية، صارت الفردية إيديولوجية مهيمنة في القرن التاسع عشر، وكانت الفردية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً مع الليبرالية، ومع الحملات العظيمة للإحسان الإنساني، والعدالة الشاملة في إنجلترا، على سبيل المثال، ومع الحملة الناجحة في إلغاء تجارة الرقيق في العام 1807 وإلغاء الرق نفسه في العام 1833، وفي القرن العشرين كوّنت كل المثل العليا التي ترتقي بالكرامة الإنسانية، وتخفف المعاناة وتضائل التراتبيات الهرمية والتمييزيات المصطنعة بين الناس، ذروة الفردية، والاعتقاد بالطبيعة المقدسة لكل مخلوق إنساني، وبحقوقه الإنسانية.

وفي السنوات التي تمتد من نهاية القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين، برزت فلسفة جديدة للمجتمع وللحكومة، وهي فلسفة الاشتراكية الديمقراطية، وكانت مستندة إلى الاستبصار في أن رفاهية المجتمع وأداء كل فرد داخل المجتمع هما أمران يعتمد أحدهما على الآخر، ورأت الاشتراكية الديمقراطية أن الأفراد انتفعوا من تجميع بعض حريتهم ومواردهم؛ ليكون ذلك جزءاً من مسعى مشترك للرقي بالكرامة، وبالمساواة الإنسانيتين، واستمدت الكثير من قوتها

ومن حيويتها من تطور اتحادات العمال، والتعاونيات، و «الجمعيات الصديقة»، التي ينضم فيها الأفراد معاً لتحقيق تقدم في غاياتهم الفردية يكون أكبر مما يستطيعون تحقيقه في التصرف فرادى، من دون القيام، بأي شكل من الأشكال، بالتضحية بهويتهم الشخصية وبالإحساس بالقيمة الذاتية، وعلى مدى السنوات المئة الماضية،كان هذا المزيج من الديمقراطية، والاشتراكية، والفردية هو المزيج المؤثر أكبر التأثير في أوروبة الغربية، وعلى العموم، فإن الاشتراكية الديمقراطية عملت عملاً جيداً على نحو يلفت النظر في حماية النسيج الاجتماعي، وفي صون الاستقرار الاجتماعي، في الوقت الذي كانت تعزز فيه الحرية الفردية بطريقة لم تحاول سلوكها الدولة الاشتراكية، والمجتمعات المركزية الأخرى أبداً.

وفي مطالع القرن العشرين، تنبأ كثير من المراقبين، عبر كل الطيف السياسي تماماً، أن الفلسفات الجماعية سوف تحل محل الفردية على نحو كامل، ورأى أوزولد إشبنغلر السلطة التنفيذية، وهي تنتقل إلى «قوى جديدة» قادة الأحزاب، والحكام الديكتاتوريين، والرؤساء، والمتنبئين وأتباعهم «وهي قوى يستمر جموع الناس بأن يكونوا نحوها هم الموضوع السلبي بشكل غير مشروط»، ورأى الحكام الديكتاتوريين يتبخترون على المسرح، كما هو متوقع، ومع ذلك، وحين مر القرن العشرون، صارت الفردية متجذرة بعمق في أوروبة وفي أمريكا أكثر من أي وقت مضى، واكتسبت أحياناً جذرية (راديكالية) وصِفةً موجهةً نحو الشباب، وانتقلت كثيراً إلى ما بعد القيم «البورجوازية» التقليدية، وإن الوفرة المادية،

والزيادة الضخمة في عدد الطلاب، واسترخاء قيود السلطة على الأفراد أطلقت الزناد لظاهرة جديدة من النوادي الليلية، ونجوم السينما، والجاز، والإيقاع والنغمات الزرقاء، وتحت العشرين، وموسيقا البوب، ونجوم البوب المراهقين المليونيرات، وثائر بلا قضية، والبيتنك (أتباع حركة الجيل المنهوك) والمود [المتغندرين على الموضة]، والروكر [جماعة روك أند رول] يلبسون جاكيت جلد، ويركبون دراجات، والهيبيين، وعقاقير الهلوسة، وثورات الطلاب بين العامين 1968 - 1969مع ما رافقها من تيار قوي باطن من التحرر الجنسي، والحركة النسوية الضخمة، وحرية اللواط والسحاق، وموسيقا الروك، ودعاة البيئة المتطرفين (الراديكاليين)، ورجل الأعمال الشعبي البليونير، ونجوم الرياضة، وموسيقا البنك والموضة، ومخدرات مصممة للهلوسة، وموسيقا البيت، ومِشْكال (كلايدوسكوب) للأزياء والهويات الكونية الأخرى، وكانت كلها تقريباً تؤمن بالإرادة الحرة التي تضخم حقوق الفرد وتقلل دور الدولة، وظهرت في الأصل في أمريكا، أو في أوروبة قبل أن تنتشر حول العالم، ولم يسبق في التاريخ الإنساني أن كان من الأسهل على المرء «وفي الحقيقة إلزامياً» أن يفعل ما يخصه من الأشياء.

بعض هذه الظواهر الطريفة كانت عابرة، بل هاربة، وأخرى، مع ذلك، مكثت في المجرى وغيرت المجتمع، وما يجعل التزايد المستمر في الفردية أمراً محتوماً تقريباً في الغرب هو ترجمة الثورة الخلاقة القادمة من حرم جامعات أمريكا وأوروبة إلى حلبة التنافس في الأعمال التجارية والصناعية، فنحن نجد هناك صناعات خلاقة

جديدة تنمو نمواً سريعاً ـ في الفن ، والتصميم، والاستشارات، والاتصالات، والأفلام السينمائية، والموسيقا، والبرمجيات، والتقانة الحيوية، وكثير غيرها ـ وفي هذه الصناعات يخلق الخيال الإنساني الثروة، وأهم اتجاه اقتصادي، يتسارع منذ العام 1950 كان اختراع تقانة المعلومات، وجعلها لا مركزية، مع موجة جديدة ضخمة من نشاط مشروعات الأعمال التي بنيت حول المجددين الفرديين ومنفعتهم.

التفكير المغاير للمألوف، واندفاع قوي لثورة تحطم الأفكار والمؤسسات الشائعة التقليدية، والخيال الذي لا حدود له، هي دوافع نجاح الأعمال التجارية والصناعية، والتفكير المغاير للمألوف ينتج أنواعاً من المنتجات المخالفة للمألوف، والعلامات التجارية المخالفة للمألوف، والطرق المخالفة للمألوف في تشغيل الأعمال التجارية والصناعية، والنجاح الشخصي الضخم للمخترعين، ويكون الترانزستور، والشريحة الدقيقة جداً (مايكروتشيب)، والمعالجة الدقيقة جداً (مايكروبروسيسر)، والحاسوب الشخصي، والبرمجيات المبدعة، والشبكة الدولية للمعلومات (الإنترنت)، والوسائل المشخصنة من كل الأنواع، والمتابعة التي لا تهدأ للاختراقات التقنية، وغير التقانية، تكون كلها تجليات لروح ثورة، ولعالم جديد مفرَّد، يقوم فيه توسع العقل الإنساني، لا بدفع الإنجاز الشخصي فقط، بل بدفع صناعات جديدة أيضاً، وطرق جديدة للقيام بالأعمال التجارية والصناعية، وإثراء شخصي باهر، وإذا كان هناك اتجاه واحد مفرَد، أكثر قوة من أي وقت مضى، يدفع الفردية في الغرب، فهو الاتجاه إلى

شخصنة الأعمال التجارية والصناعية ونجاح تلك الأعمال، ومن خلال مزيج من القوى الثقافية والاقتصادية، أخذت الفردية الغرب إلى خبرة جديدة بشكل كامل، وهي المجتمع المشخصن.

الغرب مختلف

يشرح عالم الأناسة (الأنثروبولوجيا) ريتشارد شويدر، الذي درس نواحي تعاليم الأخلاق عبر كل الثقافات، الاختلاف، فيقول: إن هناك اختلافاً أساسياً بين المفاهيم الأخلاقية الأساسية الغربية، وغير الغربية، ويقول: إن التقاليد غير الغربية تمتلك نظريات ثرية من النواحي الأخلاقية، ولكنها تستند، إما إلى أخلاق الجماعة «أي، معايير المجموعة الاجتماعية، المحملة بقيم مثل الواجب، والاحترام، والتوقير الواجب للآخرين، والالتزام بالعرف» وإما إلى أخلاق اللاهوت الإلهية، على الطهارة والقداسة التي يطلبها الله، وفي مقابل ذلك، يقول شويدر: يميل الغربيون إلى تأطير الأحكام الأخلاقية بالإحالة إلى الاستقلال الذاتي، الذي يعرفه شويدر بأنه حقوق الفرد ومصالحه، ففي الغرب يكون الإنصاف لكل فرد هو الفضيلة الجوهرية[1].

(1) آر. إي. شويدر، و إن. سي. متش، و إم. ماهاباترا، وال. بارك: «الثلاثة الكبار» من الأخلاق، و«الثلاثة الكبار»، من المعاناة، في إي. براندت وبي. روزن (محرران)، اتجاهات في العلم المعرفي (1997) نوفا سينس ببليشرز، سينت لويس، ميسوري، ص ص. 301 - 296، وليس كل المفكرين الغربيين، طبعاً، يرفعون الإنصاف الفردي إلى مثل هذا الارتفاع. وعلى سبيل المثال، فإن جيرمي بنتهام دعا إلى «أعظم سعادة لأعظم عدد» ووضع كانط الواجب فوق الإنصاف.

إن عالم الاجتماع الهولندي غيرت هوفستيد هو واحد من أعمق العلماء فكراً، وقد كرس حياته لدراسة القيم في مختلف البلدان، وتحدد دراسته الجليلة القيِّمة للاتجاهات الثقافية في صفوف موظفي شركة آلات الأعمال الدولية (آي. بي. إم) في 53 بلداً، أربعَ خواص تختلف اختلافاً متميزاً، وفقاً للجنسية:

1- مسافة السلطة (تصور المساواة، أو عدم المساواة للمكانة الشخصية).

2- تجنب الارتياب.

3- الذكورة في مقابل الأنوثة.

4- الفردية في مقابل الجماعية.

البلدان الغربية هي أوضح ما يكون في الاختلاف عن البلدان غير الغربية في بعد الفردية، وأكثر البلدان فردية هي الولايات المتحدة، وأستراليا، وبريطانيا العظمى، مع مجيء كندا، والبلدان المنخفضة ونيوزيلندا في ترتيب ليس بعيداً خلف المجموعة الأولى، والبلدان الغربية تشغل أعلى 20 مرتبة في درجة الفردية، ويصل متوسط العلامة بين كل البلدان الغربية إلى66.7[1]، وفي المقابل فإن متوسط علاقة كل البلدان غير الغربية هو 25.7 فقط[2]

(1) أخفض علامات للبلدان الغربية كانت في تركيا (37)، واليونان (35)، والبرتغال (27). وباستبعاد هذه العلامات كان المتوسط الغربي للعلامات هو 71.8، وأعلى خمسة بلدان كانت الولايات المتحدة (91)، وأستراليا (90)، وبريطانيا العظمى (89)، وكندا (80)، والبلاد المنخفضة (80).

(2) هوفستيد (2001).

obeikandl.com

ووفقاً لما يراه هوفستيد، فإن المأزق بالنسبة إلى البلدان غير الغربية واضح، إذ يجب عليهم إما أن يغيروا افتراضاتهم الثقافية ـ وهو كما يقول، صعب، إن لم يكن مستحيلاً ـ أو أن تأتي في الخلف في الرفاهية النسبية: أظهر الدليل أنه لم يكن هناك تلاق دولي للقيم الثقافية على مرور الزمن، باستثناء التلاقي نحو الفردية المتزايدة بالنسبة إلى البلدان التي صارت أغنى[1]، واختلافات القيم بين الأمم التي وُصفت منذ قرون مازالت حاضرة اليوم، على الرغم من التواصل القريب، وطوال مئات السنوات القليلة القادمة سوف تبقى البلدان من الناحية الثقافية مختلفة جداً.

(1) يمكن، طبعاً، أن يكون هناك حوار حول ما هو سبب؟ وما هو نتيجة؟ ومن الممكن، مثلاً، أنه، حين تصير البلدان غير الغربية أثرى، فإنها سوف تصير كذلك أكثر فردية، وعلى الرغم من أن هذا لم يحدث حتى الآن إلى أي درجة مميزة، كما تشير بيانات هوفستيد، ولكنه يعلق، فيقول: ـ نحن رأينا أن لفردية كانت مرتبطة بالثروة ارتباطاً قوياً (المنتج المحلي الإجمالي للفرد في العام 1970). وعبر 50 بلداً كان معامل الارتباط لافتاً للنظر، وهو ... 84. إن الفقر يجعل الناس يعتمدون على دعم جماعتهم الخاصة، وأما حين تزيد ثروة البلاد، فإن مواطنيها يحصلون على الوصول إلى الموارد التي تسمح لهم أن «يعملوا أشياءهم الخاصة» ... ـ الحياة الجماعية تحل محلها الحياة الفردية. نحن لسنا مقتنعين، فإن الارتباط، الذي يكون في نقطة واحدة في الزمان بدل أن يكون عبر الزمان، قد يكون أحياناً ارتباطاً باطلاً، وإن بدا معقولاً، وذلك لأن أغنى البلدان كانت غربية وفردية، فنحن نحاور، في جزء على الأقل، أن البلدان الغنية تكون غنية لأنها فردية؛ (وتكون فردية؛ لأنها غربية أكثر من أنها غربية لأنها غنية)، وهو اتجاه يصير مهماً بشكل متزايد في الوقت الذي يزدهر فيه الاقتصاد المشخصن. انظر الفصل 5.

هناك شعار في الأعمال يقول: «فكر كونياً، وتصرف محلياً»، وبالنسبة إلي فإن هذا الشعار ساذج ومتبجح في آن معاً، فما من أحد، كما برهن هذا الكتاب بشكل كامل، يستطيع أن يفكر كونياً، إذ نحن جميعنا نفكر وفقاً لبرمجياتنا المحلية.

وقد درس عالم النفس ريتشارد نيسبت الأنماط الغربة والشرقية للفكر واستنتج أنها كانت، وهي باقية متميزة تميزاً أساسياً:

الشرق والغرب في العموم مختلفان، أحدهما عن الآخر تماماً بالنسبة إلى الكثير من القيم المهمة أهمية مركزية، وبالنسبة إلى الخواص الاجتماعية النفسية... الاختلافات بين الشرقيين والغربيين كانت قد وجدت في كل دراسة فعلاً سبق أن تولينا القيام بها، وهي عادة اختلافات كبيرة[1].

وهو يشير إلى أنه برغم التحديث، وبرغم تبني الأنظمة الاقتصادية الغربية «هناك إشارات لا تحصى عددياً إلى أن اليابان قد تغيرت قليلاً في الكثير من النواحي الاجتماعية، وأننا نجد اختلافات كبيرة بين الطريقة التي يتصور فيها اليابانيون والغربيون العالم».

المشكلة مع المجتمع المشخصن

المشكلة مع المجتمع المشخصن هو أنه يؤدي إلى تآكل الجماعة في الوقت الذي يزيد فيه التشديد على الأفراد، وإن المجتمعات التقليدية،

(1) نيسبيت (2003).

والمركزية أكثر من المجتمع المشخصن تعطي الأفراد حرية أقل، ولكنها أيضاً تطلب منهم الأقل من ناحية التفكير أو الإسهام الأصيل، وإن العالم المركزي يعمل من خلال المؤسسات، وعلاقات القوة، والأدوار المحددة تحديداً جيداً، والأشكال المختلفة من هوية الجماعة، وتأتي هوية الفرد من المشاركة في عدد من التجمعات الجماعية المتطابقة، مثل الأمة، والطبقة، والمدرسة، والمنظمة، واتحاد العمال، والمهنة، والكنيسة، والحزب السياسي، والجماعة المتطوعة، والعائلة الممتدة، والموقع المحلي، وكل شخص عليه التزامات واضحة لهذه الجماعات، التي تأخذ على نفسها عبء تحديد السلوك والتوقعات، وفي مجتمع مركزي، يفعل الفرد ما يقال له، رجلا كان أو امرأة، وعلى الرغم من أن الفرد قد لا يحب ذلك، فليس هناك غير هامش قليل للقلق، أو الشك الذاتي، أو الاكتئاب، أو السلوك المناوئ للمجتمع. وعملياً، ينسجم معظم الناس في المجتمعات المركزية مع أدوارهم بقلب راغب، إلى الحد الذي يقدمون فيه حياتهم في الحرب.

المجتمع المشخصن مختلف تماماً، وقد بين الأستاذ في هارفارد روبرت دي. بوتنام في كتابه الذي يوجب الانتباه له، وهو بعنوان البولينغ وحيداً، كيف أن «رأس المال الاجتماعي» يُدَمَّر حين يصير المجتمع أكثر فردية، وحين نصير نحن غير مرتبطين مع الأسرة، والأصدقاء، والجيران، والنوادي، والكنائس، والروابط، والجماعات

(1) روبرت دي. بوتنام (2000) البولينغ وحيداً: انهيار الجماعة الأمريكية وإحياؤها، سايمون وشوستر، نيويورك.

المجتمعية، وتنهار الثقة، وهي مكون مهم للصحة النفسية والنجاح الاقتصادي، حين نصير نحن غرباء عن بعضنا[1].

ولكن تشظي المجتمع، وتدمير رأس المال الاجتماعي، وانهيار شعور الجماعة هو نصف المشكلة فقط، والنصف الآخر هو المسؤولية الشخصية، والقلق المعززان تعزيزاً مفرطاً، وتصبح الحياة أصعب.

المجتمع المشخصن يجلب الحرية، ولكنه يتطلب خيارات صعبة كانت في السابق موصوفة أو آلية، ما هو التعليم الذي نلتزم به؟ وما هي المسيرة الوظيفية التي نلتحق بها؟ وأي نوع من العلاقة الشخصية تكون لنا؟ وهل نستبقي تلك العلاقة أم نتخلى عنها؟ وأين نسكن؟ وأي الأصدقاء هم الذين ننمي العلاقة معهم؟ وأي نوع من الأشخاص يجب أن نصير؟ إن المجتمع المشخصن يجلب فرصة غير مسبوقة، ولكنه يزيد إمكانية الفشل الشخصي زيادة مفرطة، ويزيد الإحساس في كون الفرد قد ترك في الخلف ولُفِظ، والمجتمع المشخصن يجلب الثروة لكثيرين، ولكنه يحول الفجوة بين الرابحين والخاسرين إلى هاوية سحيقة، فالسماء هي الحد، ولكن ليس هناك أعذار من أجل الهبوط إلى الأرض، وكل مجتمع قد امتلك أفراداً صنعوا أنفسهم، ولكن المجتمع الغربي الحديث فقط هو الذي يمتلك جموعاً من الناس الذين دمروا أنفسهم، ففي مقابل كل رابح، على ما يبدو، يجب أن يكون هناك عدة خاسرين.

فليس من الصعب أن نفهم لماذا تكون الفردية، وهي في أعظم لحظة انتصار لها، غير شعبية، على الأقل بين معظم المفكرين

الغربيين؟ الأفراد يستمتعون بحرية شخصية أكبر من أي وقت مضى، ومع ذلك يشعرون معها بانزعاج أكبر من أي وقت مضى، وسواء من الذنب نتيجة النجاح (نسبة مذهلة من الناس - الناجحين - الآن يقولون: إنهم يشعرون أنهم غير سعداء، وغير راضين بالإنجاز، بل مخفقون)، أو من الأعذار عن الإخفاق، فنحن لا نستمتع بمسؤوليتنا الشخصية الموسعة. والبلدان الغربية مع درجة عالية من الحرية الفردية والحداثة تعرض أيضاً حوادث تحلق عالياً من عقلية الضحية، ومن الاكتئاب والانتحار، والاغتراب، والنرجسية، والأنانية، وفقدان الهدف، والحنين المرير إلى الماضي (نوستالجيا)، وتكاثر الحسد، وانهيار رأس المال الاجتماعي، والتراجع إلى الطوائف الدينية السلطوية.

وفوق كل ذلك، فإن المجتمع المشخصن مكروه بسبب التسارع في عدم المساواة، حين يكون الأفراد قادرين على خلق الثروة الكبيرة، وعلى الاحتفاظ بمعظم ما يخلقون، فيتضاعف عدم المساواة لا محالة.

هل يستطيع المجتمع المشخصن أن يعمل؟

نعم، يستطيع، وها هي فيما يأتي أربعة أسباب تعلل ذلك:

أولاً، إن المجتمع المشخصن يمثل آخر شكل متطور إلى درجة عالية من عملية كانت، ومازالت مستمرة المسير، تقدم خطوتين إلى الأمام وخطوة إلى الخلف، على مدى زمن طويل جداً، وطوال السنوات الألف الأخيرة، طورت الحضارة الغربية تطوراً تقدمياً درجات أكبر، فأكبر من الحرية والاستقلال الذاتي للفرد، وفي كل مرة أرخيت فيها القيود

الاجتماعية، تعالت الصيحات بأن هذا كان كثيراً جداً، وأن النتيجة ستكون هي الفوضى، والخراب، ودمار الحضارة نفسها، وكان مسار الحرية وعراً، وكان في بعض الأوقات خطراً للغاية بالنسبة إلى المجتمع العامل المنتظم، وكل ثورات الفلاحين، وحرق عشرات آلاف الساحرات، والاضطهاد الديني، والحروب الدينية، والحروب الأهلية، والإرهاب المرعب للثورة الفرنسية، وحربان عالميتان رهيبتان، بدأتا بوصفهما حربين أهليتين أوروبيتين، بل إن أعمال الاستبداد المرعبة التي مارسها ستالين، وهتلر، وماوتسي تونغ كلها كانت مشتقة في جزء منها من السعي في سبيل الحرية ورد الفعل ضده.

ولم يكن هناك مطلقاً أي حتمية في الانتقال من الإقطاع إلى الرأسمالية إلى المجتمع المشخصن، في النتيجة السعيدة نسبياً من مجتمع الغرب التعددي، والثري، والحر، وليس هناك أي ضمان بأن الغرب لن ينزلق إلى البربرية، أو الفاشية، أو إلى شكل آخر من الحكم التسلطي، أو أن يغلب من أعداء مصممين على الاستبداد والسيطرة الاجتماعية.

ومع كل ذلك، إذا رأينا الغرب في تاريخه الطويل، فإن التطور التقدمي وممارسة الحرية فيه قد واجهت أزمات أسوأ بكثير من أي أزمة ظاهرة اليوم، واستطاعت أن تبقى على قيد الحياة برغم تلك الأزمات، والغطاء الخليط المرقع من الهوية الحديثة، ومضاعفة مصادر القوة بين العديد من المؤسسات والأفراد، هي أعراض لا لمجتمع قد ذهب نحو الخطأ، ولكنها لمجتمع يتصالح مع حرية جديدة،

وهي الاستقلال الذاتي الأصيل للفرد، وحين ترتخي السيطرة الاجتماعية على ملايين الناس، فإنه من المؤكد أن بعضهم سوف يسيئون استخدام استقلالهم الجديد، أو أنهم سوف يضطلعون به اضطلاعاً سيئاً، ففي الأيام الماضية السيئة، كان الناس يعملون ما كان يُطلب منهم، أما الآن، فهم يستطيعون أن يسيئوا التصرف ، وكثيرون منهم يفعلون ذلك، ولكن أكثر منهم بكثير إلى حد بعيد مَن لا يسيئون، وإن الحرية عموماً تُمارس ممارسة ناضجة؛ لأن معظم الناس يدركون أن نوعية المجتمع، وأن سعادتهم الخاصة تعتمدان على التصرف تصرفاً مسؤولاً، وعلى التعاون مع أفراد أحرار آخرين، وفي نهاية المطاف، تستطيع الفردية المسؤولة أن تنتج إحساساً بالمجتمع أقوى، وأكثر أصالة من الإحساس الذي كان في السابق يفرض بالخداع من السلطة العليا، وإن جملة «ثقوا بالشعب»! أدت عملها من قبل.

ثانياً: إن المجتمع الغربي، في حالة انتقال من إحساس بالجماعة، كان قد بُنِي على أسس اجتماعية ومؤسسية آلية إلى إحساس بالجماعة، بُني على تبادلية بنيت فردياً، وعلى إحساس من الهوية المشتركة التي نسميها نحن التبادلية الافتراضية، والتبادلية تعني أنني أتصرف تصرفاً عقلانياً، وتعاونياً، وبشكل كريم؛ لأنني أعرف أن هذا هو الطريق لإغرائك في التصرف معي بالمقابل في الشروط نفسها، والتبادلية، مزيج مركب من عاطفة المحبة والحساب، وقد وقفت دائماً على جذر كل الصداقات، ومعظم العلاقات الإنسانية، ولكنها توفر، وعلى نحو متزايد الأساس اللازم لكل جماعة متمدنة، والآن بعد أن لم

تبق المنظمات قادرة على أن تنظم السلوك بالفاعلية نفسها التي كانت تفعلها في السابق، فإن على الأفراد أن ينظموا أنفسهم، ونظراً إلى أن التبادلية لا تستطيع أن تحدد علاقة المرء مع كل واحد يكون المرء في حالة اتصال به « ما لم يكن المرء عائشاً في جماعة صغيرة نسبياً ومكتفية ذاتياً، مثل قرية، أو كلية، ويقضي هذا المرء معظم وقته فيها، متفاعلاً مع أناس معروفين، فإن الغِراء الرابط الوحيد للمجتمع الأوسع هو الثقة في أن السلوك البنَّاء، والتعاوني سوف يكون، بشكل رئيس، متبادلاً، من الجميع، حتى من الغرباء.

والتبادلية الافتراضية تُعرض عرضاً طبعيا بالأفعال الصغيرة، مثل إعطاء الإكرامية في المطعم الذي لن تزوره ثانية أبداً، وبالقيام «بأعمال عشوائية من التلطّف»، أو بالتقاط النفايات والتخلص منها، ومن المستطاع أيضاً خلق التبادلية الافتراضية عن طريق الجماعات المرتبة ترتيباً ذاتياً من شخص إلى شخص، مثل موقع المزاد في المنبر الافتراضي ئي بي (eBay)، وفيه يجري الحكم على قيمة الناس الذين يبيعون السلع، ويصنَّفون من طرف المشترين منهم، وتعلن النتائج لكل إنسان ليراها، ويحرص الباعة على سمعتهم بالغيرة نفسها التي يحرصون بها على سمعتهم في قرية صغيرة، وهذا يعطي على الأقل بعض المعنى لتعبير «القرية الكونية»، وتتقوى التبادلية الافتراضية، ولو بمعنى غامض من الالتزام بالقيم الليبرالية، وبالمجتمع الذي يعيش المرء فيه.

ثالثاً، هناك المَحلَّة والتمركز في المحلة، ففي الوقت الذي تفقد فيه الهويات القومية بشكل بطيء قوتها، وتتقدم فيه التأثيرات الدولية (الكوزموبوليتانية)، فإن الهوية المحلية تصير حيوية من أجل إرساء الفرد وتثبيته، والالتزام بالهوية المحلية «سواء لمنطقة، أو لمدينة، أو لفريق رياضة محلي» يصير أقوى فأقوى، ومعظم الأخطار المتأصلة في الاتجاه نحو الشخصنة يمكن تحييدها باتجاه يتجه نحو جماعة محلية.

وتعمل التبادلية على أفضل وجه لها في المستوى المحلي، ففي هذا المستوى يكون من المستطاع، على نحو هو أسهل ما يكون، بناء شبكات كثيفة من الالتزام الشخصي، ومن الهوية وتعزيز هذه الشبكات، وهذا هو السبب الذي نجد من أجله ميلاً إلى جريمة أقل، واكتئاب أقل، وانتحار أقل، وغربة أقل في البلدات الصغيرة من الميل الموجود في كبريات البلدات، وميلاً أقل في البلدان الصغيرة من الميل الموجود في البلدان الكبرى، وفي الأماكن التي تتحلى بجماعات محلية نابضة بالحياة، وهذا هو السبب الذي نعتقد نحن من أجله أن المؤسسات الديمقراطية والقرارات الديمقراطية يجب أن تحوَّل تحويلاً متزايداً إلى المستويات المحلية.

وأخيراً، فإن الفردية والشخصنة عمليتان أخلاقيتان واجتماعيتان ـ وهما شيء مختلف تماماً عن التصور العام الذي يرى أن التفرد عملية لا تميز بين الحق والباطل، أو لا أخلاقية، أو لا اجتماعية، أو معادية للمجتمع، والتصور الشائع مشتق من الشكل الحديث جداً

للفردية، وهو ما يمكن أن يدعى، مع خطر الوقوع في الكاريكاتير ـ، اتخذناه في هذا الفصل، فإن من الواضح أن الفردية المتصلة بالمحافظة الجديدة هي في أفضل حالاتها تزييف وفي أسوأ حالاتها كاريكاتير للفردية الأصيلة، وهي ليست أقل من سعي الإنسانية إلى الحرية الشخصية، والتعبير الذاتي المسؤول.

لقد نشأت الفردية في أصلها من المسؤولية الشخصية أمام الله، وتطورت إلى الاعتقاد بأن السلطة الأخلاقية تأتي من الداخل، من النفس المقدسة، وقد أدت الفردية دائماً، من الناحية التاريخية، إلى إلقاء مطالب أعلى على الشخص، وبلغت ذروتها في الافتراض الغربي الحديث أن كل شخص يمتلك مصيراً فريداً له؛ ليحققه.

الفردية تعني حكم الذات، وهي تكافح، وتحاول أن تحقق الذي لم يتحقق حتى الآن، وليست الفردية غياب الجهد، أو الأخلاق، أو العناية، فالفردية تجعل الحياة أكثر إنجازاً، ولكنها مع ذلك تجعلها أصعب أيضاً.

وكانت الفردية دائماً مرتبطة أيضاً بالنشاط الاجتماعي للناس المتشابهين في الآراء، سواء أكانت الحركة الأصلية للمسيح، أم لنقابات طوائف الحرفيين الأحرار والصناع المهرة، أم للحكومة الذاتية للمواطنين في الدول المدن الخاصة بهم، أم الكنائس والطوائف التي نبعت من الإصلاح، أم من العالم المتألق من عصر النهضة، مع مدارسه وفنانيه المبدعين، أم الحركات الحديثة الديمقراطية والثورية، أم الروابط

الطوعية للعمال، أم من الراديكاليين في الحرم الجامعي، أم من المختصين الجامعيين، أم من الجماعات الموسيقية من كل الأنواع، أو من مجموعات المهندسين ورجال المشروعات والأعمال في وادي السيليكون.

لا يستطيع الفردانيون، المؤمنون بأن الفرد مقدم على الجماعة، أن يعبروا عن أنفسهم، إلا بالتواصل مع الفردانيين الآخرين، وذلك من خلال الكلام والكتابة، والرابطة المهنية، وأن يكونوا هناك، في المكان الذي يستحث حيويتهم الخلاقة إلى أقصى درجة، وإن الناس الملهمين انجذبوا دائماً نحو المدن ونحو المناطق المأهولة بطبقة الفرادنيين نفسها، ومازالوا يفعلون ذلك، وإن الشبكة الدولية للمعلومات (الإنترنت) تخلق جماعات افتراضية مفيدة، ولكن أي شخص مبدع سيقول لك: إن الشبكة الدولية للمعلومات ليست بديلاً، مهما تكن، لكثافة التواصل وجهاً لوجه بين الزملاء المتحمسين.

والإنجاز الخلاق من كل الأنواع هو إنجاز محلي على نحو لا يكاد يصدق، وعلى سبيل المثال، فإن الغالبية الكبيرة من التجديد التقاني في العالم بين العام 1880، والعام 1914 حدثت في ثلاث مدن فقط هي برلين، ونيويورك، وبوسطن، ومنذ العام 1970، برز نمط محلي مشابه من الإنجاز التقاني العالي، يقوم في كاليفورنيا، وسياتل، وميونخ، وباريس ـ سود، والممر الإنجليزي المحاذي لطريق السيارات م4، وكمبردج وأوكسفورد، وطوكيو ـ يوكوهاما، وقد شرحت دراسات علم الاجتماع النجاحَ فوق العادي لوادي السيليكون بوصفه عملَ بنيته

الاجتماعية الثرية والمعقدة، التي يختلط فيها يومياً المهندسون، والجامعيون، والرأسماليون المغامرون والباحثون عن موظفين من مستويات عالية، ويجتمعون جميعاً لتبادل الأفكار والقيل والقال في ميادين رياضتهم وأماكن شرابهم، وإن الوادي مغناطيس يجتذب الموهبة التقانية الشابة القادمة من كل مكان حول العالم.

الفردانيون الحقيقيون لا يهدمون الجماعات المحلية، إنهم يبنونها.

خاتمة

لقد كانت الفردية دائماً أكثر صفات الغرب أصالة على نحو يستوقف الانتباه، ومع مرور الوقت، زادت درجة الغرب من الفردية زيادة تقدمية، وبلغت ذروتها في المجتمع المشخصن اليوم، الذي لا يتقيد فيه الأفراد أو يُحمون بالتراتبية الهرمية، ولكنهم مستقلون استقلالاً ذاتياً، ويجب أن يحكموا أنفسهم.

لقد كانت الفردية، وتبقى أكثر من أي وقت مضى، حاسمة لنجاح الغرب، وهي تكمن خلف قيم الغرب الأخلاقية، والتفاؤل، والعلم، والاستقرار السياسي، والنمو الاقتصادي.

الفردية هي أصعب صفة على التقليد، أو الاستيراد، بالنسبة إلى الحضارات غير الغربية، والبلدان الحراكية (الدينامية) نفسها، ومن جملتها الكثير من البلدان في آسيا، التي استوردت بنجاح التفاؤل، والعلم، والنمو الاقتصادي، وإلى درجة معينة، الليبرالية، لم تصبح فردانية إلى أي حد يشبه مدى ما بلغه كل بلد غربي، وإن الغربيين،

من خلال تاريخهم وثقافتهم، مشبعون إشباعاً شاملاً بالفردية، وغير الغربيين ليسوا كذلك، وهذا الفرق الضخم ليس من المحتمل أن يتغير سريعاً، إن كان يتغير بأية حال.

إن المجتمع المشخصن يؤدي إلى تآكل الإحساس بالجماعة، وهو الإحساس التقليدي المورَّث فعلاً، والمجتمع المشخصن يحمّل الأفرادَ أعباء الإجهاد فعلاً.

وعلى الرغم من ذلك، فقد بولغ مبالغة كبيرة بمخاطر الفردية، ففي الانتقال من المجتمع التراتبي الهرمي إلى المجتمع المشخصن، يستطيع الفردانيون أن يبنوا، وهم يبنون فعلاً تبادلية شخصية وجماعة محلية، فالفردانيون يخلقون أكثر إلى حد بعيد مما يدمرون، ولقد كانت الفردية دائماً، وما زالت، من الناحية الأخلاقية ذات مطالب قاسية وميالة للعيش الاجتماعي، والخطر على الحضارة الغربية ليس هو الفردية الكثيرة جداً، بل القليلة جداً، وإذا كانت نهاية التراتبية الهرمية تنتج عقلية الضحية والارتياب في شأن الإنجاز الشخصي، فإن الغرب قد انتهى، ولن يكون بعد الآن هو الغرب.

والصفة الأساسية للأوروبيين وللأمريكيين هي الكفاح والطموح الشخصيين غير المحددين، فالغربيون اخترعوا المسؤولية الشخصية، ومفهوم النفس، والشخصية، والتزام التميز الذاتي، وإنهم محسِّنو العالم ومحسِّنو النفس، تدفعهم العاطفة وطاقة لا تفتر، فالأفراد والفردية في قلب فكرة الغرب، وفي قلب عيوبه، وفي قلب كل إنجازاته

التي لا مثيل لها، وبالنسبة إلى الغرب، فقد لا يكون هناك أي اختيار بين الفردية المفرطة، وبين أي طريقة أخرى للحياة، وإذا حدث في أي وقت وتعثرت سمة الغرب الفردية ذات المطالب القاسية والفريدة على نحو عال، فلن يكون هناك أي شيء قد ترك وهو جدير بالاهتمام جدارة فريدة.

* * *

لقد أنهينا الآن استعراضنا للأسباب الستة التي يكون الغرب من أجلها مختلفاً، ولماذا كان ناجحاً مثل هذا النجاح، ولماذا لا يمكن أخذ استمرار النجاح أمراً مسلماً به، فأين يترك هذا الموضوع العلاقات بين الغربيين وغير الغربيين؟ تلك هي القضية التي نعالجها فيما يأتي، قبل أن نجيب أخيراً عن أكثر الأسئلة حيوية: هل الغرب عازم على إطلاق زناد سقوطه الخاص؟